لجأ لكتابتها دعمًا لدعايته وصلاحه المزعوم

مذكراته تعكس شخصيته المضطربة

تأثر عبدالحميد الثاني كثيرًا بما عاناه في الصغر وظهر جليًا على شخصيته عند الكبر، حيث إنه كتب عن نفسه في مذكراته عشيقه للعزلة، وأن والده ترك أثر القسوة على ملامحه صغيرًا وكبرت معه في مراحل عمره، وشوكة السلطان على أنه لا يثق في أحد أيًا كان حتى وإن أشعرهم بثقته لكنه في نهاية الأمر يستبد برأيه، ومع ذلك تبعه بسلام بمصير دولته وشعبه لتحقيق مشاريع متعددة، وتغيير في الملامح الدولة كإصدار دستور كانت الدولة في غنى عنه؛ إذ كانت الأحداث تعصف بالعالم وليس بالدولة فحسب.

جاءت مذكرات السلطان عبد الحميد الثاني في خمسة أقسام:

- السياسة الداخلية
- السياسة الخارجية
- الشخصية الإسلامية
- سياسة الإصلاحات
- الشخصية

يتناول **القسم الأول** من المذكرات عناوين مختلفة تنوعت بين الكتابة عن الشأن الأتراك والدستور (1892م)، حيث كتب عبارات غريبة مثل: "إن مبلغ الطيش الذي بلغه الأتراك الشباب في عهد أخي المرحوم، وإن الإمبراطورية العثمانية انحطت أخلاقيًا أشهر" تلميحات عجيبة منه وتعليق أسباب التدهور المجتمعي والاقتصادي على شخص اعتبر الجميع بأنه مريض وغير مسؤول، وللعلم فإن مدة حكم مراد الخامس في مجملها ثلاثة أشهر. ويذكر أن كان عمه عبد العزيز ظُلِّمَ على العرش ثم انتحر في خبر يسوده الغموض «على حد وصفه». ويذكر عن أخيه بـ "ثم جُنَّ أخي مراد وشُنِجَ".

ونجده يسهب في ذكر الرّمى وأنهم هم المسؤولين عن الفوضى في بلاده، ولابد من الإعلاء للعنصر التركي في الأناضول، وفي حديثه عن إعلان الدستور يقول: "يجب أن أقنتع مجلس المبعوثان وأعلن الدستور لكي أظهر أني أقوم بأمر هام". ويتضح ضعف الشخصية رغم الكتابات التي نقص بها المصادر وتكررها المراجع. وقد أطلقت عليه عدة ألقاب منها: خليفة رسول الله، وأمير المؤمنين، وقيصر الروم، وسيد الأوعز المستبد، والسلطان الأحمر، وصاحب الشوكة.

وكتب رسالة لشيخ الطريقة الشاذلية: "أرفع عريضتي هذه إلى شيخ الطريقة العلية الشاذلية، إلى مفيض الروح والحياة، إلى شيخ أهل عصره الشيخ محمود أفندي أبي الشامات، وأقبّل يديه المباركتين راجيًا دعواته الصالحة، إنني بتوفيق الله تعالى مداوم على قراءة الأوراد الشاذلية ليلًا ونهارًا، وما زلت محتاجًا لدعواتكم القلبية" وقد تم تهريب هذه الرسالة لشيخه وهو في منفاه.

وتحت عنوان "خط حديد بغداد (1898م)" كتب ما يلي: "يجب علينا أن نعمل رغم أنف إنجلترا الذين يبذلون ما في وسعهم لتحيلوله دون تنفيذ مشاريعنا، فيفضل خط حديد بغداد سيعود طريق أوروبا-الهند إن أمكن بتنشيط طرق تجارتها بسوريا وبيروت والإسكندرية وحيفا نكون قد أوجدنا طريقًا تجاريًا جديدًا، ولن يقتصر هذا الطريق على در الفوائد الاقتصادية العظيمة لإمبراطوريتنا، بل سنتعداها إلى مناجعة العسكرية فبدعم قوة جيشنا هناك". وأين باقي العالم الذي سيطرت دولته عليه؟ وأين شعاره "يا مسلمي العالم اتحدوا؟" لكن الأمر خاص بالعثمانيين وقوميتهم التركية وجيشهم.

> استهدف الحرمين ودمر قناة السويس لمصلحة اقتصاد إسطنبول.

لقد كان الطموح مصيدة أحلام عبدالحميد الذي يراها في مخيلته، لأنه كتب عن نفسه أنه كثير التخيل، وذلك مدعاة في أن نعتلي الشخصية بصاحبها وتبعده عن أرض الواقع.

ومن الأمثلة التاريخية والأحداث المهمة التي لابد أن نسلط الضوء عليها خلبة الذي انسج بإنشاء سكة حديد تربط أرجاء سلطنتهم بكل الشعوب من حولهم، وكان حال الواقع يقول إن الدولة لا تستطيع أن تقف أمام ميزانية عملاقة لتحقيق ذلك، ولكن الأحداث تسارعت بتقديم الإغراءات وتسهيل تلك المهمة بأن رؤوس الأموال لها منابع متعددة ومنها أموال العرب التي تم جمعها ضرائب وإتاوات بغير وجه حق، واستمرائع العالم الإسلامي بأن ينقذوها بالبذل من أجل إنشاء شبكة حديدية تحقق تيسير وسهولة القدوم لأداء مناسك الحج والعمرة.

وتنساءل ما تلك الإغراءات التي قُدمت لخيال السلطان عبدالحميد وجعلته يتسطّر في صفحات التاريخ رأيه المتجرد لذلك المشروع العملاق في حينه؟ إن ذلك المشروع سيسهم في تقليل انتهاج الدول الأوروبية من سياسة التكتل ضد بلاده. وقد اعتمد السلطان مباشرة العمل في المشروع وقد أمره أن لم تكتمل الاعتمادات المالية أو خيرات الفنيين أو حتى صعاب تمويل وغيرها الكثير من المعوقات، لكن الخيال الواسع كان المغلب. وقال: "سيتم هذا الخط وسنتغنى عن قناة السويس، وسنربط إسطنبول بالمدينتين المقدستين مكة والمدينة، وسنتمكن من تأمين المواصلات المدنية والعسكرية بكل أمان واطمئنان". في تدمير واضح للاقتصاد المصريين ولمصلحة إسطنبول.

ويتناول **القسم الثاني** السياسة الخارجية، حيث حمل عنوانًا مهمًا جدًا يقول بـ "أخطر أزمة للنمساوثات وهي "الحملات الصليبية على الدولة العثمانية" حيث ذكر: "الحملات الصليبية لم تتوقف قط ولا يزال غلادستون العجوز يسير على خطى آبائي في هذا السبيل ويتساءل: وهل تسحق الدولة هذه الحملات وقد أوت النصارى الهاربين من جحيم الصراع المذهبي في الغرب خلال القرون الوسطى. ألم كتن الدولة العثمانية هي الملجأ الوحيد لليهود الناجين من بطش محاكم التفتيش في إسبانيا" ولم يأت على ذكر الحوادث الكارثية التي حلت بالمسلمين في نفس الجهات التي استقبلت دولته منها اليهود والنصارى.

> اعترف بأن الدولة العثمانية الملجأ الوحيد لليهود الناجين من إسبانيا.

وتنكر في القسم الثاني عناوين فيها تناقض يتضح في قراءة كل موضوع تناوله عند الآخر، ولكنه كتب عن روسيا وعداوتها له على حد تعبيره معلومات مهمة ومنها: "ولنعلم أن مشترك، وهو أن لنا عدة ملايين من المسلمين في روسيا وفيهم أناس من الكنيسة الأرثوذكسية يعيشون في الأراضي المقدسة بفلسطين وتقوم روسيا برعايتهم، إن عدم الإمكان في توصلنا إلى طريقة للتعايش السلمي مع روسيا أمر جدير بالأسى والأسف" ويذكرنا قوله هنا بأسلوب الصفحات التي أتبعها أسلافه عند استصراخ مسلمي الأندلس بهم لنجدتهم، ولكن لم يكن أسف ولا أسى على ذلك منهم.

وفي **القسم الثالث** اختار أن يكون الحديث عن الشخصية الإسلامية، وقد تناول فيه عناوين متضاربة الجهاد، الإسلام بين الحضارة والتسامح، وقصد بذلك التسامح الزواج من غير المسلمات" وكأنه هذا يصدر فتوى لتحليل ذلك رغم أن الإسلام لم يحرمه، وهنا سلوك عجيب من شخصيته وفكره الديني حيث يقول: "النصيب كلمة ظالمة أضرت بالناس، وأوقعتهم في مصائب، ولا مكان في القرآن لفكرة النصيب، بل لفيت وراءًا في القرون الأخيرة على ألسنة الناس بسبب كسلهم وقلة فهمهم. وأصبحت إن شاء الله ملجأ لكل من يريد سنر ضعفه وخموله" ثم يفحم موضوع التوكل وأن الرسول صلى الله عليه وسلم أمر المسلمين بالانكال على الله. وهو أمر غريب في عدم معرفته بنصوص القرآن، ولا غرابة فالطريقة الشاذلية عقدت على فكره (وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) [المائدة: 11] وغيرها من الآيات المعززة بأحاديث المصطفى عليه السلام (وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ) [البقرة: 202] (نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ) [النساء: 322].

كما أنى على ذكر التعصب رغم أنه وأسلافه من أشد المتعصبين لعرقهم وإعلائه، فهو يرفض أن تصفه أوروبا بالمتعصب.

وكتب عن الخلافة والشيعة فقال: "وإنه لمن دواعي الأسف ألا يقوم أي تعاون بيننا وبين إيران، وقد كان عليها أن تسعى إلى التقارب معنا كي لا تصبح العوبة بيد روسيا وإنجلترا". وما أسباب ذلك تأكيد هذا وهدر الحقب السابقة دون تقارب، لأن المرحلة كانت مرحلة حرب المصالح، وتصرت الدولة بسياسة سلاطينها وجعرفتهم.

وخصص **القسم الرابع** عن التعليم عند العثمانيين الذهن وآدابه. والسؤال ينكر أين الحديث عن جهات الدولة الأخرى؟ ولكن الإهمال الشديد هو ما بنيته من خلال مذكراته تجاه الدول العربية خاصة والإسلامية عامة. وذكر الامتيازات يعنوان "حقوق الأمم" حيث ينتقد الصحافة ويذمر منها، ويشكك في مصداقية أخبارها، وعلة ذلك أنها كانت تكشف الأعيب دولته، ولقد فضحت الصحافة والصحفيون تعتيمًا ونكديًا شرشًا منه. وما أنسبه الليلة بالباحة "أدرعاك والصحافة".

أما **القسم الخامس** والأخير عن شخصيته، رغم أنه شرحها من خلال أسلوب كتابته للأقسام السابقة، فخصص عنوانًا عن "الشخصية" رغم يعاني من الانتقاد لذوراته، ويحقد على من ينتقده لأنهم يعلمون كيف نشأ وأخوته السابقة من قسوة إخوته عليه، والأمر العجيب أنه يرافقهم رغم اللعب والمرح ولا يشاركهم رغم أنه كتب عن معاملة أخيه مراد له ويصف أخاه بالمسكين. ويظهر الاضطراب في كل مرة يذكر فيها أخاه مراد وتهانيه، ويلوم كل من لم يستطع فهمه، ولكنك يحاصره في أن مجرد اعتلائه العرش وجد نفسه محاطًا بأناس يريدون تقييده بشباك المؤامرات والدسائس. وذلك دون أسلاف البيت العثماني، وحريم السلطان -الحرملك-. ويتنقل الكلام بنص عن إخفائه حقائق تخص مقتل عمه عبد العزيز، وجنون أخيه مراد ثم يختم بالحديث عن أركان القصر وذكر رجال الدولة وتنوعهم وشكّه مرارًا وتكرارًا في الجميع.

وتنتقل إلى الحديث عن الموسيقى، والقطع الموسيقية المهداة له وهي من أمم وقوميات مختلفة، وأنه لم يستطع أن يعطيهم الأعطيات لأسبابه، والكنفي بالأوسمة وكتب الثناء، وذلك تأكيد على الخزانة الفارغة، رغم أنه يتحدث في عنوان "عبد الحميد الشهيد" أنه جمع ثروة طائلة أخفاها خارج البلاد -يقصد ألمانيا- لأن المصارف في إسطنبول غير مأمونة، ويوثق بقوله: "لو داعي للاستقراب فكل حاكم يعمل ما عملته". وآخر العناوين كانت عن الجاسوسية، "أن جمع المطبوعات الفرنسية التي كلفته مائتا فيلول. "للصحفي اليوناني مكرؤليدس الذي يعيش في باريس يفتكني هنا كل عام صبالغ طائلة كي يصدر جريدته "نور أوربا" لقد كان عليها أن تفهم في أوانه ضرورة عدم الاكترات بالفيل والقال، وكان حريًا بالأوسمة التي وزعناها وكأنها أدوات زينة أن نوزع على بعض الصحفيين كي يقفوا إلى جانبنا، فإنهم إذا حاروا على هذه الأوسمة كأننا صوتنا المسموع في كل مكان. ولكن فات الأوان وأصبحت آلاف الصحف في الصف المعادي" وهنا يتحسر على سلوكيات دولته وقدرة حكمه في أنه دعم الصحف الخارجية حتى تكون معه ولكنها انقلبت ضده رغم التمويل السخي، وذلك سبب من أسباب خلو الخزينة في الدولة وإفلاسها.

تلك بعض من تصرفات السلطان عبدالحميد الثاني وسلوكياته وتبقى مذكراته تحوي الكثير من التحليلات والوصول من بين السطور إلى حقائق كان يعتقد بأنها غامضة.

المراجع:

1) مذكرات السلطان عبد الحميد: مذكراتي السياسية، ط2 (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1979م).